د. سمير بسباس*

ظهر في اوروبا ولم ينتقل عبر الطيور المهاجرة بل عبر الصناعة والتجارة العالمية:

المسكوت عنه في قضية انفلونزا الطيور

■ بعث أحد المواطنين الى جريدة «التايمز» يتهم فيها بعض المساحات التجارية التي تستورد لحم الدجاج ومشتقاته من تايلندا وكان ذلك في 28 تشرين الاول (أكتوبر) 2005. هكذا بدأ الجدل حول طريقة انتقال المرض وعقبت مجلة The Ecologist في كانون الاول (ديسمبر) 2005 (وهي مجلة تصدر في ثماني لغات) على ذلك متهمة مؤسسة TESCO مذكرة بمختلف الأوبئة التي أصابت الحيوانات والطيور بالذات مشككة في الفرضيات التي تتهم الطيور المهاجرة ودجاج المزارع في كونها السبب الرئيسي لانتقال المرض. لقد أصبح بامكاننا دراسة المكونات الجينية لخلايا الطيور التي ماتت من جراء الوباء وهذا حتى قبل 10 سنوات خلت. يتبين من خلال دراسة قامت بها المنظمة العالمية للصحة أن فيروس قد انتشر في أربعة مجمعات صناعية لتربية H5N1 الدواجن في فرنسا سنة 1959 وفي انكلترا سنة 1991 وفي هونغ كونغ سنة 1996 وسنة 1997 ومن جديد سنة 2002. رغم أن هذا الوباء قد أصاب أيضا دجاج المزارع لكنه لم يتسبب في موت جماعي بين صفوفها. نحن نعيش اليوم الوباء الخامس لهذا المرض. كيف ظهر هذا الوباء الأخير؟ لقد ظهر في نفس الوقت باندونيسيا وتايلاند والصين واليابان. حسب تقرير للديوان العالمي لأمراض الحيوانات وهو صادر في كانون الثاني (يناير) 2004 ظهر هذا المرض في واحد من ثماني بناءات للتربية الصناعية للدواجن وللحصول على البيض يضم 66 ألف دجاجة مات معظمها. سنكتشف كيف أن المتسبب الحقيقي لانتشار هذه العدوى ليست الطيور المهاجرة والبرية ولا الدجاج الذي يرعى في المزارع (ما يعرف في تونس بـ «الدجاج العربي») وأن الفيروس القاتل H5N1هو بالأساس نتاج الطرق الخاطئة لتربية الدجاج وبالأخص منها التربية الصناعية.

1. التربية الصناعية للدجاج:

منذ أكثر من 50 سنة اكتشف الأمريكيون طريقة جديدة لتربية الدواجن أقل تكلفة واجهادا وهي التربية في أماكن ضيقة وباعداد كبيرة وسميت بالتربية الصناعية للدجاج. المجلس القومي للدجاج هناك حدد المجال الحيوي لدجاجة واحدة بـ 550 سنتمترا مربعا أي مساحة أقل من مساحة ورقة رقن . فعندما يكبر الدجاج يحتل هذه المساحة ويصبح A4 عاجزا عن الحركة ويمكن عندها ذبحه.

أستاذ الأمراض الفيروسية في جامعة Earl Brown أوتاوا بكندا يرى أن تربية الدجاج في مجال ضيق جدا وكثافة عالية يمثل الوسط الأمثل لترعرع فيروس أنفلونزا الطيور وقد وافقه على ذلك خبراء من منظمة الأمم المتحدة. ففي تشرين الاول (أكتوبر) 2005 خلصت مجموعة دراسات وعمل تابعة لمنظمة الأمم المتحدة الى أنه من بين عوامل انتشار أنفلونزا الطيور أساليب تربية الدواجن التي «ترص» عددا كبيرا من الدجاج في مجالات محدودة. كما يبين Earl Brown أن الفيروسات التي تحملها الطيور البرية هي عادة غير خبيثة لكن بمجرد أن تنتقل هذه الفيروسات الوديعة الى المداجن الصناعية تحدث عليها تغييرات وطفرات mutations فتصبح خبيثة. فالطيور التي تربى بطرق تقليدية لها مناعة أقوى من الطيور التي تربى في مجال ضيق.

البلدان النامية في معظمها صادقت على اتفاقيات تحرير التجارة في اطار المنظمة العالمية للتجارة وهي مجبرة على فتح أسواقها لتجارة اللحوم والدجاج والمستوردة بأسعار متدنية (لأنها مدعمة داخليا وعند التصدير). اذن تعمل هذه البلدان على اللحاق بمستوى انتاجية البلدان الصناعية وبلوغ مستواها (Standard) وذلك حتى تتمكن أيضا من اقتحام الأسواق الخارجية. كل ذلك يقع على حساب القضايا البيئية والصحية.

2. آسيا مدجنة العالم:

في جنوب شرقي آسيا هناك 7 مليارات من رؤوس الدجاج أي 40 % من دجاج العالم جزء منه معد للاستهلاك المحلي والجزء الآخر معد للتصدير. تحتل تايلاند المرتبة الرابعة في تجارة الدجاج بعد الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل والسوق الأوروبية. في هذا البلد هناك كثافة غير طبيعية للدجاج في المداجن الصناعية. ففي مدجنة صناعية واحدة يقع تجميع 5 ملايين دجاجة مع ما ينتج عن ذلك من تلوث للماء والهواء. يقتصر دور المربي في الرقابة وتقديم الحبوب ومواد هرمونية (هرمون النمو) والمضادات الحيوية.

شركة TESCO البريطانية صاحبة مساحات تجارية كبيرة هي المسؤولة عن مراقبة أكبر مجمعات تربية الدواجن في تايلندا وتستورد منها جزءا من مبيعاتها من الدجاج في أوروبا. فهذه المؤسسة لها فروع في 12 دولة وتشغل 100 ألف شخص وتبيع لما يقارب 15 مليون مستهلك وهي متواجدة في أوروبا الشرقية وتركيا وآسيا وتمتلك سلسلة Tesco Lotus بتايلندا التي تعد 47 مساحة تجارية كبرى.

الخطر لا يكمن في الدجاج المطبوخ ولكن في مشتقات الدجاج المستورد من بلدان آسيا وبالخصوص منها الخليط المثلج. تستورد بريطانيا الدجاج من تايلندا بالأساس بينما تستورد فرنسا الدجاج من الفلبين والصين. في بلدان جنوب شرقي آسيا التي انطلق منها مرض أنفلونزا الطيور كتايلندا واندونيسيا وفيتنام تضاعف انتاج الطيور ثماني مرات في ظرف 30 سنة وارتفع من 300 ألف طن من الدجاج سنة 1971 الى مليونين و500 ألف طن سنة 2001. في الصين تضاعف انتاج الطيور ثلاث مرات في التسعينات ليبلغ أكثر من 9 ملايين طن في السنة. هذه الزيادة ناتجة أساسا عن التربية الصناعية للدجاج وهي مؤسسات ذات طابع دولي.

طموح تايلندا بان تصبح « مطبخ العالم» ذهب سدى بفعل وباء أنفلونزا الطيور الذي عصف بآسيا منذ أواسط كانون الاول (ديسمبر) 2003. فمنذ كانون الثاني (يناير) 2004 رفضت السلطات اليابانية وأوروبا وكوريا الجنوبية 20 ألف طن من الدجاج التايلندي. من المعلوم أن تايلندا تبيع ما يقارب 90 % من انتاجها للخارج بقيمة تبلغ ألف مليون يورو وبالأخص باتجاه أوروبا واليابان. بروز أنفلونزا الطيور بتايلندا تسبب في خسارة لمجمع Charoen الدولي (والذي يضم أيضا شركات البذور Pokphand والاتصالات التلفونية والبتروكيمائية وتجارة الجملة). فمنذ السبعينات عم الانتاج الصناعي للدجاج في تايلندا وقضى على آلاف المزارعين الصغار. لقد نبهت المنظمة العالمية للصحة منذ سنة 2004 الى الظروف السيئة للانتاج والى انعدام اجراءات الوقاية والمراقبة الصحية في مختلف مراحل الانتاج.

من المعلوم أن مداخيل شركات التربية الصناعية للدجاج قد ارتفعت في تايلندا بنسبة 50 % بين سنة 1995 وسنة 2000 بينما تفاقمت ديون المزارعين الصغار الذين يبلغ عددهم 20 مليونا بـ51 % وفي نفس الفترة. في الفلبين، وقبل أربعين سنة، كان السكان يتغذون من دجاج المزارع وبيضها. اليوم أفلس الجزء الأعظم من المزارعين الصغار ومربي الدواجن. ففي المداجن الصناعية بالفلبين يعجز الدجاج عن الحركة بفعل حقنها المتواصل بالمضادات الحيوية وذلك بغاية الرفع من وزنها. أغلب أنواع الدجاج المصنع مستورد من الخارج وهناك شبه انقراض تام للأنواع المحلية من الدجاج.

3. من أين جاء الوباء وكيف انتقل؟

ظهر الفيروس القاتل H5N1في المداجن الصناعية في الصين وبلدان جنوب شرقي آسيا. فحتى وان افترضنا جزافا أن الطيور المهاجرة هي المتسببة في نقل الفيروس فذلك لا يمكن أن يكون الا على امتدادات قصيرة نسبيا. فالمسؤول الرئيسي عن هذا المرض هو صناعة تربية الدواجن العالمية التي ترسل موادها وفضلاتها المتأتية من تربية الدواجن في كل أصقاع العالم وعبر قنوات عديدة.

يوضح الدكتور Gary Smith من المدرسة العليا للطب البيطري بجامعة بنسلفانيا أن الخطر لا يأتي فقط من كثافة الدجاج في المداجن ولكن بالخصوص من انتقال الأمراض من مدجنة لأخرى. فالتربية الصناعية للدجاج تشجع على انتقال الحيوانات ومشتقاتها بين المداجن وهناك حركة نقل سريعة وشديدة لمواد تستعمل بصفة مشتركة بين المداجن والمشكلة الرئيسية تكمن في أن صناعة الدواجن تتدخل في نفس الوقت في المجال العالمي والوطني والمحلي.

وباء الحمى القلاعية ببريطانيا شاهد على صحة هذه النظرية وعلى طريقة انتقال العدوى في كامل البلاد. رغم كل الادعاءات حول تسبب الطيور المهاجرة في تفشي المرض فان البحوث العالمية تثبت عكس ذلك فلقد خضعت مئات الآلاف من الطيور البرية المهاجرة للفحص ولم يقع العثور على هذا الفيروس لدى هذه الطيور الا في حالات نادرة جدا. صرحت المنظمة العالمية للتغذية والزراعة في تشرين الثاني (نوفمبر) 2005 ما يلي: «ان البحوث العالمية المعمقة والمدققة لم تبرز الى حد الآن أي دليل لحمل الطيور المهاجرة التي لا تبدو عليها علامات المرض وفي البلدان التي ظهرت فيها أنفلونزا الطيور لأي فيروس من هذا القبيل». اذن من أين جاء هذا الفيروس والحال أن الطيور المهاجرة سليمة منه. حتى الطيور المهاجرة التي انتقلت الى أوروبا والتي ماتت بفعل هذا الفيروس قد تعرضت للعدوى في البلدان المحيطة بالبحر الأحمر وماتت وهي في طريقها للغرب.

ضعف نظرية انتقال الفيروس عبر الطيور المهاجرة تثبته عديد الدلائل :

ـ الطيور المهاجرة من منطقة Qinghai بالصين والتي تعرضت للعدوى من المداجن الصناعية لا تنتقل الى أوروبا الشرقية .

ـ مسالك العدوى تتبع خطوط الطرق السيارة الرئيسية والسكك الحديدية ولا الخطوط الجوية.

ـ عدم وجود أنفلونزا الطيور في أفريقيا السوداء (باستثناء نيجيريا وسنتعرض لها لاحقا).

ـ خلو استراليا من مرض أنفلونزا الطيور طيلة فترة الخريف.

ـ خلو الفلبين وبرمانيا ولاوس من أنفلونزا الطيور (سوى في منطقة محدودة بها مدجنة عصرية) والحال أن هذه البلدان تحيط بها بلدان ظهر فيها هذا المرض. فحتى وان قبلنا بانتقال العدوى عن طريق الطيور المهاجرة فهذه الأخيرة لا تمثل سوى وسيط واحد. في الحقيقة ان فيروس H5N1خاص بالمداجن الصناعية والطيور البرية وديوس المزارع (الدجاج العربي) هي ضحايا وليست السبب. ففي المداجن الصناعية يتحول الفيروس من حالته غير القاتلة وبسرعة الى فيروس خبيث وقابل للعدوى. ففي المداجن الصغيرة حيث لا توجد كثافة كبيرة للدجاج وحيث هناك أنواع مختلفة من الدجاج بحيث يمثل هذا التنوع الطبيعي حماية لها ضد الأمراض لا يتحول الفيروس الى الحالة الخبيثة. فلقد أقرت المنظمة العالمية للتغذية والزراعة بأن فيروس أنفلونزا الطيور يتأقلم تماما مع دجاج القرية والبط ويعني ذلك أنه لا يصبح فتاكا لا بالنسبة للدجاج ولا بالنسبة للبشر. فهناك دلائل على أن انتعاش هذا الفيروس يقع في المداجن الصناعية. نفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لمرض Newcasstle أو طاعون الطيور.

فلقد أثبتت البحوث العلمية أن كثافة الطيور والدجاج هي المتسببة في حدوث طفرات Mutations في الفيروس وفي تفشي المرض.

لماذا لم يظهر المرض في لاوس Laosوالحال أنه محاط ببلدان قد ظهر فيها هذا المرض؟ الجواب يكمن في أن في هذا البلد لا زالت تربية الدجاج تقع بصفة طبيعية وهي توفر 90 % من الانتاج ولقد عمل هذا البلد على غلق حدوده أمام دجاج تايلندا. في كمبوديا وجهت السلط الحاكمة اصبع الاتهام الى مؤسسة Charoen Pokphand العالمية وهي أكبر منتج للدجاج في آسيا. من المعلوم أن معظم شركات انتاج الدجاج الصناعي في كمبوديا مرتبطة بهذه الشركة. في الحقيقة لا تخضع تجارة الدجاج ومشتقاته الى مراقبة صارمة وهذا ما يترك المجال مفتوحا لانتشار العدوى. كما أن هذه التجارة أصبحت نشيطة. ففي أوكرانيا وحدها وقع استيراد 12 مليون دجاجة حية سنة 2002 .

في تركيا مؤسسة Hastavukتمثل أكبر مجمع دولي لتفريخ البيض حيث تبلغ قدرة حضن البيض 100 مليون بيضة في السنة جزء منها يقع تصديره الى أوروبا الشرقية والشرق الأوسط والمعلوم أن بيض الحضن (المعد للتفريخ) من أكثر الأسباب ترويجا للعدوى. من الأشياء المثيرة هي أن الطعام المقدم للدجاج في بعض المداجن الصناعية يتكون في جزء منه من فواضل الدجاج بما في ذلك البراز والريش والعظام وكلها تحت مسميات «فارينة مستخرجة من الحيوانات». تؤكد المنظمة العالمية للصحة أن فيروس أنفلونزا الطيور يمكن أن يتواجد في براز الطيور لمدة 35 يوما. السلطات الروسية وجهت اصبع الاتهام لغذاء الطيور بصفته المصدر الرئيسي للمرض. عديد الشركات العالمية خصوصا في آسيا تتهرب من المراقبة وتخفي حقائق بل ان بعضها رفض تطبيق الاجراءات الحكومية.

بالنسبة لحالة نيجيريا فانه عندما وقع اكتشاف أنفلونزا الطيور بها سارع العديد الى اتهام الطيور المهاجرة. لكن السلطات الحكومية في نيجيريا حددت المسؤول عن ذلك وهي مؤسسة للتربية الصناعية للدواجن وهي الأكبر في القارة الافريقية شبه الصحراوية. ففي سنة 2003 عندما ظهر المرض في هولندا كانت مدجنة صناعية نيجيرية تستورد 30 ألف بيضة للحضن من هذا البلد وقد توقف توريد البيض بمجرد اكتشاف المرض. أما الحالات التي ظهرت مؤخرا في مدجنة عصرية تابعة لوزارة الرياضة فلقد تبين أن البيض المخصص للحضن والمستورد لا يخضع كله للمراقبة وجزء منه غير مسجل وقد يكون انتشار العدوى ناتجا عن توريد بيض التفريخ من تركيا.

لا يفوتنا أن نذكر بأنه في أغلب المداجن الصناعية تقدم للدجاج وجبات من هرمونة النمو Hormone de croissance ومن المضادات الحيوية. ففرنسا على سبيل المثال تنتج مليارا من الدجاج في السنة وعشرات الملايين من البط والحبش والأرانب. نصف انتاج المضادات الحيوية يقدم للحيوان. فحسب نقابة صانعي الأدوية البيطرية تقبلت الحيوانات سنة 2004 ألفا و400 طن من المضادات الحيوية 20 % منها خصصت للطيور والدجاج وتستعمل هذه المواد لتسريع نمو الطيور. كذلك الحال بالنسبة لهرمونة النمو المرخص استعمالها. كل هذه المواد اضافة الى مخاطرها (تزايد مناعة البكتيريات تجاه المضادات الحيوية) تجعل الطيور أقل مناعة وقدرة على مقاومة الفيروسات والبكتيريات.

4 .. خلاصة:

يعتقد البعض أنه ما دام دجاج المزارع يرعى بكل حرية ويتصل بالطيور المهاجرة التي تحمل الفيروس فالخطر يأتي منها وهذا خطأ فادح. من حسن الحظ أن الاجراءات «الوقائية» التي اتخذتها الدول كمنع تربية الدواجن في المزارع وحصرها في مناطق ضيقة ومعزولة ومنع بيع الدجاج الحي غير قابلة للتطبيق لكلفتها. فعوضا من أن نضع اصبع الاتهام على الداء نحول الضحية الى مذنب ونتغاضى عن الحقيقة وهذا هو مكمن الخطر.

أنفلونزا الطيور يجرنا الى الحديث عن مخاطر النظام الغذائي الذي بدأ يسود والمتميز بارتفاع استهلاك اللحوم. ففي السابق كان أكل اللحوم حكرا على قلة ومظهرا من مظاهر البذخ. لكن المكننة المكثفة للزراعة وزيادة انتاج الحيوانات جاءت لتغير العادات الغذائية. فالفلبيني أصبحت اليوم من بين المراكز العالمية لانتاج الأبقار المعدة للتصدير.

منذ سنة 1950 ارتفع الانتاج العالمي للحوم 5 مرات. فالفلبين وحدها تنتج سنويا 500 مليون دجاجة و20 مليون خنزير. من الغريب أن استهلاك اللحوم في البلدان النامية ارتفع بوتيرة أسرع منها في البلدان الصناعية وبالخصوص في المدن الكبرى. فرغم أن سكان الفلبين لا يستهلكون كمية هائلة من اللحوم لكن هذا الاستهلاك هو في تصاعد إذ بلغ استهلاك الفرد من اللحم 21 كغ في سنة 1995 وارتفع الى 30 كغ في سنة 2005. في البلدان الصناعية يبلغ استهلاك الفرد من اللحوم 80 كغ في السنة جزء هام منه يقع استيراده من البلدان النامية وبالأخص من آسيا. من المعلوم أن ما يقارب ثلث انتاج البلدان النامية من الحبوب مخصص لتغذية ماشية البلدان الصناعية وأن نصف المساحات المزروعة حبوبا في العالم معدة لتغذية الماشية. فواضل الحيوانات يمكن أن تستعمل كسماد ولكن جزءا منها يتراكم ويمثل مجالا خصبا لنمو الجراثيم. اذن كيف نجنب الحيوان والبشر هذه الأمراض؟ باقتفاء أثر دواجن المزارع والطيور المهاجرة وقتلها؟ نعتقد أن مثل هذه الحلول لا تجدي نفعا وهي كمن يقص غصن الشجرة الذي يجلس عليه.

لقد توصل بعض المزارعين في العالم الثالث الى حلول ناجعة توفر انتاجا كافيا وتجنب تفشي الأمراض. فهم يربون الدجاج في الهواء الطلق ويتركونه يرعى مع مراقبة مستمرة ودون استعمال المضادات الحيوية التي تضعف مناعة الطيور وتهيئها للأمراض. يقدم هؤلاء المزارعون للدجاج أنواعا من البهار والنباتات المحلية التي تتميز بمقاومتها لأمراض الجهاز التنفسي فيقع على سبيل المثال خلط الفلفل مع الحبوب لمقاومة الأمراض واثارة شهية الدجاج في فترات الحر والقضاء على الدود في الجهاز الهضمي ومقاومة أمراض كمرض Newcastle. يستعيض هؤلاء المزارعون عن الأدوية بنباتات محلية بخسة الثمن. ان تربية الدواجن في المزارع والهواء الطلق هي أيضا أساس الأمن الغذائي لأنها لا ترتبط بالمجمعات العالمية الكبرى كما أنه توفر دخلا محترما لمئات الملايين من المزارعين في آسيا وغيرها وتمثل ثلث البروتينات في غذائها. فأغلب العائلات الآسيوية تربي بعض الدجاجات سواء للحصول على اللحوم والبيض أو لاستعمال فضلاتها كسماد.

الحفاظ على التنوع الطبيعي هو ركيزة أساسية للحماية من الأمراض. نحن نعاين انقراض أنواع عديدة من النباتات والبذور والحيوانات في هذا القرن المنصرم من ذلك الانقراض شبه الكلي للدجاج المصري الذي صمد منذ عهد الفراعنة والذي يتميز بحصانة كبيرة تجاه الأمراض. ففي آسيا انقرضت أغلب أنواع الطيور المحلية وعوضتها الطيور المستوردة من البلدان الغربية والتي لا تتلاءم مع الظروف المناخية لهذه البلدان. الحل يكمن في اعادة الاعتبار لتربية الدواجن في المزارع وانقاذ ما يمكن انقاذه من الأنواع المحلية للدجاج والتخلي عن الأساليب المضرة لتغذية الحيوانات والدواجن.

صرح Juan Lubrothوهو خبير لدى المنظمة العالمية للتغذية والزراعة بما يلي: «من السهل أن نوجه اصبع الاتهام للطيور المهاجرة فنحن بذلك ننفي المسؤولية عن كل طرف.

حتى وان حملت الطيور المهاجرة الفيروس، فانتشاره ناتج بالأساس عن نشاطات البشر وتجارة الدجاج ومشتقاته وعن المبادلات التجارية بين مختلف البلدان». لا يمكن أن نتعامى عن الحقائق ونخفي رؤوسنا في الرمل كالنعامة بل لا بد من مواجهة المعضلات بحنكة وتبصر.

فمرض أنفلونزا الطيور هو من بين أمراض العصر، أمراض مجتمع الاستهلاك الذي لا يعتني سوى بالكم والمراكمة. انها الطبيعة تنتقم لنفسها ضد مخربيها لكن آثار هذا الرد تطال كل الناس وهذا ما يدعونا الى التفطن واليقظة.

* كاتب من تونس

حل السلطة الفلسطينية ام إعلان الاستسلام؟

محمد مشارقة *

■ بنزق وانفعال طالب بعض السياسيين والاكاديميين الفلسطينيين باستقالة الرئيس المنتخب محمود عباس، وزاد بيان لنشطاء وقادة ميدانيين من حركة فتح بالمطالبة بحل السلطة وعودة الاحتلال ليواجه الشعب قدره دون واجهة وهمية تدعى السلطة الوطنية، التي تحولت بنظرهم الى ما يشبه خيال المآتا.

ودون دخول في تحليل اسباب وتداعيات المشهد المذل المريع لرجال الامن في مقاطعة اريحا وطريقة اختطاف احمد سعدات الامين العام للجبهة الشعبية ورفاقه، ينبغي الذهاب الى ما هو ابعد من الصورة والبحث العميق في سؤال، هل قررت اسرائيل والولايات المتحدة وبريطانيا انهاء السلطة، هل ما جرى هو الترجمة الواضحة لحديث كوندوليزا رايس حول استراتيجية الفوضى البناءة التي باتت برأي بعض المحللين الاستراتيجية الامريكية الحالية للمنطقة، وامتدادا لذلك ينبغي الانتباه جيدا الى ما يقوله علنا احد مستشاري البيت الابيض لشؤون الشرق الاوسط، روبرت ساتلوف الذي يتحدث صراحة ومنذ ما يزيد على عقدين من الزمن عن أولوية الخيار الاردني، وعدم اهلية الفلسطينيين لبناء دولة، ونضيف لدعاة حل السلطة ان خطة ايهود اولمرت ضم ما يزيد على ستين بالمئة من مساحة الضفة الغربية الى اسرائيل، تعني تماما ترك الكتل السكانية الكبرى لكيان يضبط الامن ويمنع الارهاب، واذا ما عجز عن هذه المهمة الامنية فان الضم الى الاردن هو الحل المثالي للدولة العبرية ومستقبلها.

من يرغب من الفلسطينيين بحل السلطة يقول صراحة ان الفلسطينيين شعب غير مؤهل لحكم نفسه، ويجب ان يبحث عن وكيل لاسرائيل ليحكمه. ويغلف هؤلاء دعواهم بستار من الافكار فوق العروبية وفوق القومية وتارة اخرى باسم الدين الواحد، وكاننا مرة اخرى امام مؤتمر اريحا جديد، الذي استكمل المشروع الصهيوني باقامة الدولة اليهودية والحاق ما تبقى من الارض الفلسطينية بامارة شرق الاردن، حين امطرنا فرسان تلك المرحلة مطلع الخمسينات بذات العدة السياسية والفكرية.

لقد دفع الشعب الفلسطيني ثمنا باهظا لاستعادة هويته الوطنية واستقلالية قراره، ونحو نصف قرن من المقاومة، والصراع مع النظام العربي العاجز والتابع والمتواطئ مع المشروع الاستعماري الصهيوني.

من الغرابة بمكان ان تعود بعض الاصوات التي تلتحف بالشعار القومي والتقدمي، الى المطالبة بالتخلي عن انجاز تاريخي يتصل بالمشروع الوطني والهوية على ضآلة هذا الانجاز، والعودة الى التشكيك بحق الشعب الفلسطيني في تحديد خياراته ومستقبله في الاستقلال وبناء دولته المستقلة، وكأن المدن الخليجية التي تتحول الى دول مستقلة في العصر المعولم حلال عليها اما فلسطين فحرام عليها الحرية ولا يليق بها الاستقلال.

لن يفرح فرسان الجملة الثورية دعاة حل السلطة، باحراج اسرائيل وتوريطها في شرور ولاأخلاقية الاحتلال، لان ما ترغب اسرائيل في رؤيته هو مقاول يتسلم مهام أمنها ويوافق على ابتلاع اكثر من نصف الضفة الغربية والحوض المائي ونسيان القدس وقضية اللاجئين، مقاول محلي من عصابات الشوارع والازقة او اقليمي لا فرق، المهم ان ينجح فيما عجزت عنه السلطة.

المطلوب هو التمسك بالسلطة بعد اعادتها الى الشعب، واعادة النظر في مفهوم الوزارة والادارة الحكومية، واعادة الاعتبار للمناضلين في الاجهزة الامنية والشرطية و العسكرية، وتحويل دورها وامرها اليومي الى حماية الشعب ومصالحة وممتلكاته، وكذا اعادة بناء الحركة الوطنية على اسس القواسم المشتركة التي تؤمن صمود الشعب والتوافق على اساليب المقاومة العنيفة والسلمية، استنادا الى قدرة الشعب على الاحتمال وحتى لا يكون عرضة لبطش الاحتلال وتغول آلته العسكرية، المطلوب ليس حل السلطة بل تحويل مفهوم السلطة من ادارة بيروقراطية فاسدة الى ادارة شعبية مبدعة، لان سلطتنا العتيدة لم تبدع غير تقليد نموذج السلطة العربية الرديئة، وانشأت هياكل ادارية لدولة مستقلة فعلا وليست تحت الاحتلال الفعلي.

مطلوب اعادة بناء السلطة تحت الاحتلال بكل ما يتطلبه ذلك من اجراءات وادوات وآليات عمل وسلوك وبنية قيمية واخلاقية منظمة بقوانين وتشريعات تعيدها الى الارض ومن عليها من بشر، بنية تبدا ولا تنتهي عند تغيير مفهوم ودور الموظف الحكومي وطرائق وامكنة العمل، وتحرم استخدام الموقع الوظيفي والمال العام لاغراض شخصية، وفي السياق تخفيض رواتب الوزراء والمدراء العامين وكبار الضباط وسحب كل امتيازاتهم من سيارات وبيوت فارهة، بما في ذلك التنسيق الامني مع الاحتلال لتامين تنقل كبار رجال السلطة.

مطلوب اعطاء القدوة والمثال في العمل المنتج وتواضع الملبس والمسكن وطرائق العيش، فالتجربة الحية دللت على ان احد الدوافع الاساسية التي حكمت طريقة التصويت لاختيار نواب الشعب في الخامس والعشرين من كانون الثاني (يناير) الماضي، كان تأييدا للتواضع والزهد والبساطة، وعقابا للفجور والبذخ والفساد واصحاب الامتيازات، ان مشهد عزيز الدويك رئيس المجلس التشريعي الذي انتقل الى نابلس بسيارة اجرة وانتظر مع الناس البسطاء على حاجز حوارة وتوقف في نابلس ليتناول سندويش فلافل قبل ان يصل الى جامعة النجاح، مشهد يغني عن عشرات الخطابات حول السياسة والنضال والماضي والتاريخ وإطلاق الرصاصة الاولى، واشير الى رواية ذات دلالة يتناقلها الناس في قطر، ان القادة الثلاثة لحماس الذين وصلوا الدوحة بعد ابعادهم من الاردن، اقاموا في فيلا للضيافة، منحهم الامير بطاقة اعتماد مالي كي يتدبروا شراء حاجياتهم اليومية، لكن الديوان الاميري ذهل عندما اظهرت الفواتير ان خالد مشعل ورفيقيه لم يصرفا طيلة ثلاثة اشهر سوى بضعة مئات من الدراهم، انفق معظمها على الماء والبيض والمعلبات. ولهذا لم يكن مستغربا ان يضطر خالد مشعل اثناء زيارته الاخيرة الى القاء خطابه أمام الجمهور القطري في استاد رياضي.

ان واجب النخب الفلسطينية هو التمسك بالبوصلة الوطنية والانشغال الجدي لانقاذ الحالة الوطنية الفلسطينية بالضغط لتعديل مسار السلطة واجبار فصائلها على التوحد والعمل المشترك فحماس لا تملك غير الاعتراض النبيل والشجاع على الغطرسة والظلم، كما لا تملك غير مشروع الاستشهاد المحمل بالرموز، لكنه لا يصنع سياسة بمفرده، بل بقدرته على صنع حلف وطني واسع يضم الجميع، من الشيوعيين الى القوميين والليبراليين، من اجل ازالة الاحتلال وتامين صمود الناس، فالاحتلال والتسيد الامريكي على العالم الى زوال ولا يمكن ان يستمر الى الابد، والاساس هو القدرة على الصمود والاحتمال، فالصراع اليوم لم يعد على الحقوق الفلسطينية بل على مضمون هذه الحقوق، وكما يقال «الفوز صبر ساعة».

* كاتب فلسطيني مقيم في لندن

ليبيا بحاجة لقرار ثوري بحل «اللجان الثورية»

سعاد الطيف الفيتوري*

■ ان فكرة وجود اللجان الثورية فكرة طموحة لتحقيق الكثير من الأهداف المرسومة لها، كتوعية المواطن، نشر الوعي الثقافي والوطني.

ووجود مثل هذه اللجان في الأساس هو أمر مطلوب ونافع لأن وجودها يمنح البلد قوة من خلال استيعابها للجماهير وسهرها على راحة الشعب والحفاظ على كل مكتسبات الدولة، ونشر أفكار الكتاب الأخضر بالشكل الصحيح والمساعدة على تطبيق القانون وبث الوعي القانوني بين المواطنين والعمل على احترام الكفاءات ووضع الانسان المناسب في المكان المناسب، واشعار المواطن بالأمان والتطلع نحو مستقبل أفضل وايجاد أحسن صورة عن ليبيا خارج البلد، وذلك من خلال نشاطات الملحقيات الثقافية في سفاراتنا في الخارج، واعطاء صورة جيدة وحضارية للبلد والتبشير بعصر الجماهير، ولكن من المؤسف أن هذه اللجان الثورية هي أبعد ما تكون عن الثورية لأن الثورة حياة والثورة نظام والثورة حفظ الوطن والمواطن.

وعندما نستعرض هذه اللجان من خلال ما قامت به نراها قد فعلت العكس حيث اضطهدت المواطن واختطفت السلطة من بين يدي الشعب ومن المؤتمرات الشعبية، وتحولت الى اخطبوط مرعب يسيطر على كل مفاصل الدولة ومؤسساتها التعليمية والصحية والاعلامية والقضائية والأمنية والسياسية وشمل تطاولها حتى وصل الى سفاراتنا في الخارج ومؤسسات المجتمع المدني، وتأتي كل هذه السيطرة والاستحواذ من قبل مجاميع ليس لديها الثقافة المناسبة ولا الكفاءة التي تؤهلهم لمثل هذه المواقع الكبيرة والشاملة ولا يؤهلهم ذلك الى تلك المناصب التي يمارسون سلبياتهم من خلالها سواء في داخل البلد أم خارجه.

وهذه الحركة وبالتحديد (مكتب الاتصال باللجان الثورية) اختطفت فعلياً السلطة والثروة والسلاح من الشعب، وأصبحت هي التي تمارس بالنيابة عنه، وهي المركز والعقل المدبر لحركة اللجان الثورية، وهذه الحركة لا تخضع لأي مساءلة قانونية ولا يمكن محاسبتها أو مراجعتها من قبل الشعب ومؤتمراته.

لقد أسست هذه اللجان لاتجاهات سلبية بين المواطنين حيث أنها أعطت انطباعات سلبية من خلال ممارستها مع الناس، الأمر الذي أدى الى خلق علاقة سلبية بين المواطن والدولة باعتبار أن اللجان الثورية هي واجهة من واجهات الدولة، وهذا الأمر أدى بدوره الى هبوط في الفعاليات الاجتماعية ضمن أعمال (المؤتمرات الشعبية) حيث أن الحس الوطني والشعور بالمسؤولية قد تأثرا بتلك الممارسات السيئة من قبل اللجان الثورية، فلو أردنا أن ننقذ الوطن والمواطن علينا أن نعمل لكشف واقع هؤلاء وتصرفاتهم بأموال الشعب ومقدراته والكيفية التي يعاملون الناس بها، حيث أن المواطن عندهم محتقر ومصلحته لا تعنيهم بقدر ما تعنيهم مصالحهم التي يحققونها على حساب الشعب علماً أن الشعب الليبي يشعر بوجود هذا الاخطبوط الذي راح يتدخل في كل أموره وشؤونه من دون أن يقدم الشيء الجيد والمفيد، بل على العكس من ذلك، ولكن الشعب مغلوب على أمره لأن من يعارضهم يعرض نفسه وعائلته لمخاطر كثيرة قد تصل الى السجن والتصفية، والشيء المرعب أنهم في كل هذه التصرفات الهمجية والوحشية يحاولون تغطيتها بغطاء من الدولة وأحياناً يبلغ بهم التطاول أن يضعوا اسم القائد كغطاء وذريعة لأعمالهم اللاانسانية، علماً أن القائد بريء من كل هذه التجاوزات والأفعال الشنيعة، ولكنه لا يعلم الكثير من هذه الممارسات التي تجري أحياناً باسمه أو اسم الثورة، وكلنا أمل ورغبة شديدة في أن يصل صوتنا هذا الى مسامع القائد، ليتخذ منهم الموقف المناسب والذي سيجعل منهم عبرة للآخرين ولكل من تسول له نفسه العبث بمقدرات وأرواح المواطنين والاساءة الى سمعة الدولة.

ان أغلب أعضاء هذه اللجان هم من المتسلقين والنفعيين والانتهازيين الذين لا يهمهم الا مصالحهم الشخصية على حساب مصلحة ومستقبل ليبيا، فإن كل هذه المؤسسات التي هي تحت سيطرتهم ونفوذهم أصبحت مشلولة وشبه فاشلة وتساهم في تخلف البلد، وليس رقيه وتقدمه الى الأمام نحو مستقبل أفضل، ولم تكن لديهم القابلية على استيعاب الآخرين الذين هم أبناء جلدتهم ووطنهم ولكن قصور الوعي وقلة الثقافة يجعلان منهم أداة تنفير لا أداة جذب وتغيير. ولنفس السبب من كونهم قليلي الثقافة ومحدودي العلم فإنهم لا يستطيعون مواكبة مجريات العصر في داخل البلد وخارجه في الوقت الذي يعيش فيه العالم ثورة اتصالات ومعلومات.

ومعلوم أن من لا يحظى بقسط من التعليم والثقافة فانه وبشكل واضح يشعر أمام المثقفين والمتعلمين بالنقص، وهذا الشعور بدوره يزيد عندهم عقدة (الانتقام) من الآخر الذي هو أكثر تعلماً وثقافة. ومن خلال هذه العقدة (عقدة الدونية) فانهم يسدون كل الطرق بوجه المثقفين والمتعلمين ليصلوا الى المراكز المناسبة بهم، مما جعل من (مكتب الاتصال باللجان الثورية) وكأنه مركز لتجمع الأميين وقليلي الثقافة، ولتعويض نقصهم يحاولون أن يكونوا هم من يمنح المواطن صفة الوطنية والاخلاص أو عدمه، وهذه الشهادة لا تمنح الاّ منهم ولكنها وللأسف شهادة غير موضوعية ولا منطقية؛ لأن الأمي لا يستطيع أن يقيم المواطنين والمثقفين منهم وهذه جريمة تضاف الى جرائمهم البشعة بحق المثقفين وبحق الوطن.

ومعلوم أن المتخلفين في الوعي والثقافة يهربون الى بدائل تمنحهم القيمة والدرجة الاجتماعية فيحاولون أن يكرسوا الروح العشائرية والقبلية، مما يجعل اللجان هي ملك لقبائل وعشائر معينة، في حين انها وجدت لتكون لكل أطياف الشعب من دون تمييز،